معبد الروح

مجموعة قصصية/ معبد الروح

تأليف / رضوى محمود

الناشر/ أدباء ٢٠٠٠

الطبعة الثانية / ٢٠٢٠

رقم الإيداع /٢٢٩٨٦ - ٢٠١٩

الترقيم الدولي /٩- ٠٤- ٦٧٢١- ٩٧٧- ٩٧٨

تدقيق لغوي / أحمد محمد عبد المنعم

غلاف / حسام يحيى

تنسيق وإخراج /محمد فايز

حقوق النشر والطبع والتوزيع محفوظة لدار أدباء ٢٠٠٠ للنشر والتوزيع-٢٠٢٠

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو جزء منه أو اختصاره بقصد الطباعة واختزان مادته العلمية أو نقله بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك دون موافقة خطية من الناشر مقدما.

كل ما نُشر في هذا العمل مسؤولية المؤلف، ودار النشر غير مسؤولة عما ورد في هذا العمل

دار أدباء ٢٠٠٠ للنشر والتوزيع

نشر – توزيع

01020812429 – 01099654718

العنوان: ش وهبه- فيصل – الجيزة

معبد الروح

رضوى محمود

Odabaa
OD
2000
للنشر و التوزيع

إهداء

إلى من تمر أيامي بين عمرهما

" أمي وأبنتي "

دمتم لي شمس وقمر تضئ بكم الحياة

إهداء

الي الروح الحنونة الصادقة..

من قال لي رفقاً بحالك ستنفجرين صبراً..

الي من كان منزله معبد لروحي..

اللواء عبد المنعم كُريم

أسكنك الله فسيح جناته

الباب الأول..

من الحب ما صمد..

بعدنا ليه!؟

أمام المرأة لاحظ وأنا أجدل شعري كي أبدأ برسم إحدى لوحاتي «شعرة بيضاء»

ذكرتني بأني أكملت من العمر أربعين، ولازلت الآنسة «بيسان» مدرسة التربية الفنية، والرسامة بأوقات الحنين.

أحيانًا نكتب أوجاعنا على الورق لتتقاسمها مع قلوبنا وتخفف عنها العناء، ولكني كنت أجد دائمًا عزائي في الرسم، كان قلبي ينغمس من لون لآخر، كفتاة ليل تمر بين رجل وآخر لتذيب الحنين؛ كي لا يحرق قلبها.

لقد مر العمر بين شوق وحنين دونا اللقاء، لم أره منذ آخر لقاء بيننا، ذاك اللقاء الذي اتسم بالغموض،

بعد حب دام سبع سنوات سمان، جاء بعدهم هذا اللقاء لتبدأ سنوات العجاف، سنوات لا أرض تنبت بها ولا ماء، مَرَّ بي وقتها من مَرْ، ولكن دون أن يضع له أدنى بصمة تذكرني به يوما ما.

حتى اليوم أتذكر ملامح وجهه عندما أتاني ليلقي بطلقته في قلبي لأنزف ما تبقى لي من عمر، كنت أحمل معي وقتها إحدى الصور لفساتين الزفاف كي نختار سويًا ماذا سأرتدي له في زفافنا المتفق عليه خلال شهرين من هذا اللقاء.

ذهبت إلى ذاك المقهى الذي حضر معنا سنوات العنفوان، وانتظرت حتى بدى لي كالقمر، ولكنه في ليلة المحاق.

كانت ملامحه باردة هذه المرة، خالية من الشوق الذي اعتدت عليه، انتفخت عيناه قليلا، وما كنت أعلم أنه بكاء ما قبل الوداع، تغاضيت عن كل هذا وقابلته بابتسامتي المعهودة، وكان أول ما نطق به فنجانًا من القهوة ليشاركني قهوتي كما اعتدنا

وكان هذا الشيء الوحيد الذي فعله كالمعتاد معي في هذا اليوم.

بعدها سرد لي ما رتبه طول الليل من الكلام، طلب مني قبلها ألا أرد قبل أن يكمل كلامه.

- قبل أن يجمعنا بيت يصعب علينا هدمه، وأطفال نرتبط ويرتبطون بنا، دعينا نفترق ولا تسألييني ما السبب، دعي الزمن يمضي، لعله يخبرك ما لم أستطع قوله.

كنت أرى مدى صعوبة كلامه على ملامحه قبل ملامحي، ليتني يومها سألت عن سبب هذا العذاب الذي أطاح بقلبه قبل قلبي، ولكنه وعلى عجل قبل أن تخدعه دموعه، ترك دبلته المنقوش عليها قلبين وتاريخ خطوبتنا، ورحل.

سمعت يوما من أحد الأطباء أن هناك لحظاتٍ يعيشها الأموات قبل خروج الروح مباشرة، لحظاتٍ يرى فيها عمره كإعلان فيلم سينمائي، مقتطفات من العمر قبل الحساب.

أتـذكر أنـي كنـت عـلى قيـد الحيـاة وقتهـا، ولكنني عشـــت هذه اللحظات، رأيت لقاءنا الأول عندما جاء إلى كليتنـا مع أحـد اصـــدقـائي، رأيـت عيونـه اللامعـة عنـد اعترافـه الأول بحبـه لي، يوم خطوبتنـا، اول قبلـة وضـــعها على جبيني أضـــاءت لي الحياة، يوم شـــرائنا لتلك الـدبلـة المنقوشة، التي كان من السهل عليه أن تغادر يده.

لم تترك حقيبتي يوما، قبل أن أشـــرع في رســـم أي لوحة من هـذه اللوحـات، كـانـت دبلتـه تســـبق يـدي، تجلس أمامي لتمدني بالحنين.

بـالأمس أكملنـا العـام الرابع بعـد العشـــر على هـذا الفراق الصـــامـت الـذي لم أنطق منـه حرفًـا، لم يســـمع مني الرد حتى الآن، اكتفيت بدبلتـه المنقوشـــة كجزء منـه، ومراقبتـه عبر مواقع التواصـــل، وأنـا واثقـة أنـه يبـادلني المراقبـة رغم زواجه بغيري بعد عام واحد من لقائنا الأخير.

جـاءتني هـذه الثقـة لأني لم أفعـل بـه مـا يجعلـه ينســـى كـل هـذا الحـب، على ثقـة أنـه يتـذكرني كمـا أنـا، في ردائي الوردي الأخير، رغم أن أصـــبح لـديـه من الأبنـاء وليـد، بلغ من العمر عشرة منذ شهرين وثلاثة ايام.

بعد أن أتممت لوحتي سالفة الذكر، أصبح حلمي الذي استنفز معي كل الحنين على وشك أن يتحقق، أن ترى لوحاتي النور، وأن يقدس حنيني في معبد.

كان اليوم الأخير من العام، وقد أُختير هذا اليوم لأقيم به معرض لوحاتي كي أنهي سنين جرحي، وأبدأ عام فرح من جديد، ولكني ما كنت أعلم أنه سوف يكون عام الفتح، فتح ما قد تم غلقه منذ سنين مضت دون سبب.

كنت حينها فخورة بما قدمت، لا يسعني الكون، فرحة لم أعهدها منذ زمن، ولكن ما كنت أعلم أن لهذه الفرحة سببًا غير تحقيق حلمي.

وهو أني رأيته يتقدم بين الناس، وكأنهم غادروا المكان فجأة، كنت على حق، كان يراقبني وقد علم موعد المعرض الذي حلمنا به سويا، وجاء في موعده.

جاء ليلقي بجحر في مياهي الراكدة.

وبعد نهاية اليوم وفي نفس مقهى الفراق، جلسنا، كنت قد اشتقت إليه، كدت أن اعتصره بين أحضاني

بالعين، وكاد أن يفعل هو الآخر، بدأ كلامه بمباركة معرضي، وكثير من كليات المدح، وأنا قد اكتفيت بالنظر إليه.

وعندما تكلمت، كان أول كلامي سؤالًا ملَّ من البحث عن إجابة طوال هذه الفترة...

بعدنا ليه!!؟

كاد الصمت بعدها في تلك الثواني - بل الساعات - أن يمزقني، حتى تكلم...

- كنت أخشى من ضعفي أمامك، لم أجد نفسي وقتها ذلك الشاب الصعيدي الطبع الذي لا يرضخ بسهولة، كان حبك يسيطر على كل شيء بي، حتى خشيت على رجولتي منه.

كنت أخشى بعد الزواج أن أفقد صرامتي في أحد القرارات أمام حبك لشيء رفضته، خشيت أن أفقد نفسي.

- فكان أسهل عليك أن تفقدني.

- لم أفقدك يومًا، كنتُ دائم التفكير بكِ، ولم أكف يومًا عن مراقبة حسابك لأعرف كل أخبارك، حتى اليوم لم أستطع أن أنساكِ، وجئت لنحقق حلمك معًا.

- كنت حلمي قبله، ليتك لم تخبرني عن السبب، سببك أسقط أمامي شوق وحنين كل سنيني الماضية.

وقبل أن تخدعها دموعها، رحلت، كما فعل من قبل، وتركته في حيرة من أمره كما فعل، وقبل أن يعطى لها خاتم الزواج الذي أحضره معه ليفاجئها به، تركته كما فعل من قبل أن يرى فستان زفافها الذي كانت قد اختارته منذ أربعة عشر عام مضى.

تُرِكتَ في الماضي، وأنت اليوم متروك.

تمت..

صمود الياسمين..

(شجار أم عناق)

خرجت قبيل الغروب أشاهد أسراب الطيور وهي تأخذ قسطا من حريتها، منطلقة في السماء تكون أشكالًا تَسُر الناظرين، نظرت إلى الياسمين بشرفتي وجدته يحتاج إلى ماء، فلم أسقه منذ يومين، بينما كنت أرويه وجدت ابنتي تراقب أحد فروعه عن قرب بدقة شديدة، ثم قالت:

- انظري يا أمي، هناك فرعان يتشاجران، لا يترك أحدهما الآخر

قلت لها: ومن أدراك أنه شجار، فربما يكون عناقا!؟

فنظرت إلي مندهشة، وصممت على رأيها، فهو شجار.

فابتسمت قائلة

- حاولي أن تأخذي كل فرع بعيدا عن الآخر، ولنرَ ماذا هما بفاعلين.

ففرقت الفتاة بين الفرعين مرارا وتكرارا، وإذا بهم يعودان كما كانا.

إصرار الفرعين على أن يظلوا سويًا في صمود أمام محاولات ابنتي في تفريقهم أعادني إلى بداية قصتي مع أبيها، حين اكتشفت قبل زفافي بشهر أنَّ هذا الجسد يأبى أن يمهلني وقتًا للسعادة الخالصة، وصادق سرطان الثدي وعاداني، تذكرت أيضًا رد فعل زوجي حينها، كان بالنسبة لي غير متوقع أكثر من المرض، رفض أن يخبر أحدًا بحقيقة مرضي، سواء من أهله أو أهلي، وأن يجعله سرنا الأكبر، وأصر أن نكمل تحضيرات زفافنا، وأن يتم في موعده.

أي جنون هذا الذي يفكر به هذا الرجل؟ أي زفاف؟ وكلانا يعلم أني على حافه بين عالمين، لا أعلم في أي منهم سوف أسقط، أي حياة يريد أن يكملها وهو

في ريعان شبابه، يحتاج أن ينعم بهذه السنوات القادمة مع زوجة سليمة الجسد، لا ينقص من أنوثتها جزءًا تم استئصاله، امرأة مشكوك في أمر إنجابها لابن أو ابنة يحملان اسمه.

تماسك، وبدأ معي رحلة العلاج بعد زواجنا بأسبوع، وأخبر الجميع أننا في شهر عسل خارج القاهرة، ولا نريد إزعاجا من أحد، وفي الحقيقة كانت المشفى تأوينا حينها.

تدريجيًا كُشِف سرنا أمام الناس بسقوط شعري ونحول جسدي وفقدان جزءٍ منه.

وتدريجيًا أيضًا ظل صامدا أمام آرائهم من معاتب وناصح، مشجع ومعارض، وكثير من الكلمات الموجعة، حتى أصبح لي حائط مانع لكل شيء يؤذي مشاعري، يحجب عني رؤية كل ما هو سلبي، ويأخذني بين الوقت و الآخر في رحلة إلى جنات لا أرى مثلها إلا معه، كان يعلم أن علاجي نفسي اكثر منه عضوي، فكان يعمل على إسعادي رغم معاناته، حتى تعافينا سويًا.

كل هذا الحب لا يأتي إلا من شخص يحمل معاني الرجولة حقا، جعلني أفكر في أن أقترح على من يصدرون البطاقات الشخصية أن يمنحوها بعد اختبارات حياتية، حتى يستطيعوا تصنيفها حقا لذكور ورجال، فكثير من الرجال تظلمهم صفة الذكورة، وكثير أيضا تمنح لأشباه الرجال.

أفاقتني زمجرة ابنتي، لفشلها في محاولة التفريق، فضحكت واحتضنتها قائلة:

- لا داعي للغضب يا ابنتي، فهو عناق وليس شجارا، التقيا وقت الجفاف ليطمئن كلٌ منهما الآخر، ورفضا أن يفترقا بعد أن ارتويا رغم محاولاتك، تعاهدوا على أن يكونا عونًا لبعضهما البعض، وأن تزهر بينهم صغار الياسمين مثلك، فمن التقى في الشدائد، يصمد أطول أمام هذه الحياة.

فلنراقبهما معا، عساكِ أن تأخذي من سندها الوفاء.

تمت..

غاب وسط الزحام..

لم تترك طريقا إلا وسلكته للوصول إلى قلبه منذ أن عرفت منه معنى الحب دون أن تقول له، ولا تدري ما يشعر به تجاه قلبها.

فضلت أن تعشقه في صمت إلى متى، لا تدري، ولكنها قالتها له آلاف المرات، بالأفعال، بالنظرات.

أقرب الاقربين لها صارحوه بحبها له، وكان رده صادما لها قبلهم....

هو لا يستطيع الاستغناء عنها، ولكنه لا يعرف لماذا لا يرى فيها زوجة المستقبل يرى فيها كل ما يحتاجه دون ذلك، ربما خشي عليها من نفسه، من تردده الدائم تجاه الأشياء، تقلباته المزاجية والقلبية في بعض الأحيان،

يريدها في حياته، ولكن كما رسمها خياله، مجرد أكثر من صديقة، هذا ما كان يطلقه على علاقاتهم.

هي، تقدم العمر بها، فقدت الاب، وظلت تعيش قلق الأم ودموعها، خوفا من أن تتركها وحيدة، ضاقت بها الطرق، دائما في حيرة ما بين البوح والحياء.

بعد صبرها كل هذا العمر أملا أن يجمعها به بيتًا واحد، لم تستطع أن تتنظر أمام كرامتها التي رأتها تنهار أمامه سنة تلو الأخرى أمام حزن، أم تريد أن ترى فيها فرحتها.

وافقت، ارتبطت، تزوجت

هو لا يستطيع أن يمنع نفسه من أن يراها العروس، تربية يده كما كان يقول، ذهب ليهنئ ويقطع شريان.

في زحام فرحها، وهي ترتدي الأبيض لغيره وسط مهنئ ومبارك، رأته يتقدم....

مبروك، أنا بحبك..

وغاب وسط الزحام..

تمت..

لن ترحلي..

التقينا أثناء سيري بأحد الأحلام..

رأيته من وراء حجاب، لم أحدد وقتها ملامحه، ولكني كنت أرى خبث ضحكته على شغفي لرؤيته، كشف عليَّ حجابه بعد عدة مرات، فرأى القلب ملامحه، أخذ يلاحقني، حتى اعتدت وجوده بأحلامي، ومرت ليالٍ لا حصر لها، ولقاؤنا يتجدد بلقاء جفناي.

بحثت عنه في شاركني حياتي وشاركته خياله، عشت معه حتى آمنت به،

واقعي، فلم أجده

عتب عليَّ بحثي، غاب عن أحلامي، حاولت أن أنساه، ولكنه أبى أن يُمحى من الذاكرة، ظل كالنجوم يضئ خيالي بقليل من النور، حتى لا يُنسى، و كنتُ

كلما حلَّ بي اليأس في عودته، تذكرت أن ما زرع الله بقلبك إيمانا بشيء ما، إلا لتحصده في نهاية المطاف.

حتى جاءني يوم وتمردت عليه، إما أن يرحل من الذاكرة، أو يعود لواقعي، وليست أحلامي كما كان يفعل، كفرت به بعد إيمان، وأصبحت بلا طاعة له، ثم ازددت كُفرًا به، وذهبت أبحث عن دين آخر أجد به ملاذي.

وما إن حاولت التجرد منه، حتى فجاءني بعاصفة من غضب أرعبتني، أحاطت بي حتى منعتني من الرؤية كعقاب، هبط إليَّ من بينها، ووضع يديه على كتفي، ونظر في عمق عيني نظرة لم أستطع أن أغير مسار بصري بعدها، وظللت محدقة به برهبة.

كانت نظرته رغم قسوتها تحمل حنانًا في ذات الوقت، ظل ناظرًا إليَّ دون كلام، ولكنه قال كثيرا من اللوم والعتب حتى أبكاني، غسل قلبي من كفري به، وأعادني من ارتدادي إلى الإيمان مرة أخرى، وكمن ضل إيمانه وعاد، عدت أقوى إيمانا به واحتسابا لما هو آت منه، وعاد إلى خيالي بنور أقوى من وميض النجوم، فأضاء سماء قلبي كقمر وشمس تلاقي

على غير عادتهم، وقتل ما تبقى بقلبي من رماد كُفر به، ونقاني إلى الأبد.

فلن أكفر به بعد.

وعدت أعيش معه في حلمي، تاركة الواقع لأصحابه، مادام لم يكن به، فهو ليس واقعي.

ووهبت حروفي وردا أتقرب إليه به.

وبات رب قلبي وحبه سيده.

فلا تقلق يا حلمي..

«للقلب حب يحميه»

تمت..

الباب الثاني..

ما نحن إلا حالات عابرة في طريق بعضنا البعض

قارع الطبول..

كنت أجلس بمقعدي وسط جماهير من محبي الصوفية، يبهرني ما أرى من عرض لرقصة الدراويش وإنشادهم، تبهجني ألوان التنورات حولي التي تدور ببطء وتتسارع ثم تتطاير في الهواء، وأردية الراقصين البيضاء التي تضفي على الروح لونها، وتنزع منها ما قدمنا به من أحقاد على الواقع المزعج لأحلامنا، وكأنه حفل لتنقية الروح وإسعاد القلب، كانت المرة الأولي لي هناك، ولكني عاهدت نفسي ألا أحرمها مرة أخرى من روعة هذا الإحساس، فما شعرت به وقتها جاهدت كثيرة لأصل إليه، سلام بحثت عنه في كل الأماكن ولم أجده سوى اليوم هنا، راحة ما سبقتها راحة ،ليتهم يحملوني معهم حيث هذا التجلي الروحاني الذي أراهم عليه الآن، اشتدت التنورات، واشتد الدراويش في الدوران،

حتى أسدل أوسطهم حبال تنورته، وتباطأت حتى آلت للسقوط...

والتقت أعيننا، أربكني وأربكته.

قارع الطبول الذي غرق في أمواج نظر اتنا حتى فقد إيقاع دقاته، وفقدت معه السيطرة على قلبي، ثم حاول مرة أخرى أن يهتدي، فأغمض عينيه لحظة، ثم دقق النظر إلى أكثر وأكثر، وكأنه يقرأ إيقاعه من بين عيوني، يسمع ما يمليه عليه القلب من دقات، وينقلها إلى طبوله، حتى شعرت أنه يضرب إيقاع لحنه دقات قلبي.

ظل قلبي يملي عليه وهو يدق بشغف، لا أدري كم من الوقت مر علينا، دقائق أم ساعات، همنا سويًا، دق مالم يدق مثله من إيقاع في حياته يوما، وتراقصت معه روحي كما لم يتراقص مثل هذا اليوم أيضا، نسينا ما بيننا من ناس، اتسعت ابتساماتنا، وكأن لا يوجد غيرنا بالمكان، شعرت أني صعدت على مسرحه، حللت شعري، وظللت أدور حول نفسي في دائرة الدراويش.

حتى انتهت الدقات..

وانتهت الرقصات..

فوضع يده على قلبه، وحياني بابتسامة عريضة اخترقتني كشعاع نور، فرددت عليه التحية كما أمرنا، بأن إذا جاءتنا تحية الحب، فلنحي بأحسن منه.

وذهب، وذهبت، وأنا أفكر فيما عشته في تلك اللحظات

حتى أدركت أن ما هي إلا حالة إنعاش للقلب نحتاج إليها من وقت لآخر لنشعر بأننا مازلنا على قيد الحب.

يحدث أن نحيا عما كاملا في انتظارها ولا تأتي، ويحدث أن تأتينا على غير موعد مشاعر صادقة في دقائق معدودة، نذهب بعدها، ونحن على أمل أن نلتقي مرة أخرى، أن تلتقي أعيننا مرة أخرى، أن تتراقص دقات قلوبنا على إيقاع قارع الطبول الصادق ثانيا.

تمت..

نساء لا ترى السماء..

نحيى لكي نقيم العادات والتقاليد، ضاع من عمرنا الكثير في هدوء يقيدنا؛ حتى لا نصبح قطعة من اللحم النيء في فم أهل الحي الكرام، نحن ثلاثة نساء، لم نرَ السماء منذ أعوام مضت، نسكن في منزل العائلة المكون من حجرتين وصالة، نسيت الشمس أن تشرق عليهم قرابة العشرين عاما، منذ وفاة أبي وأمي في سنة واحدة.

أغلقنا شبابيك الغرف خوفًا من الأقدار، ووضعنا هذه الستائر السميكة حول سور البلكون منعًا لاختلاس نظرات الجيران، ولكنها لم تمنع فقط النظرات، منعتنا أيضا أن نرى السماء..

نحن ثلاثة أخوات، حياة البالغة من العمر ستة وخمسين، أكبرنا سنا، حنان الأصغر بعامين، وأنا حنين

آخر العنقود، كما كانت تناديني أمي رحمها الله قبل أن تدبل زهرتي.

حرصت أمي ان يكون فارق السن بيننا لا يتعدى السنتين حتى نكون أصدقاء لبعضنا البعض في الصغر، وكأنها تدري أننا سنكون بدون رفاق في الكبر.

الكل منا قصتها التي جعلت منها وحيدة بلا رجل، قصة حياة بدأت عندما أصبحت معلمة لغة عربية، وجاءها من علمها معنى كلمة حب من نظرة، فابتسامة، فلقاء، فخطبة، فزواج مع إيقاف التنفيذ حتى إكمال منزل الزوجية، فحادث سير أدى إلى الوفاة.

حادث أنهي حياة رجل، وجعل قلب امرأة سجين الجسد حتى الموت، رفضت أن تحي بدونه تركت عملها وظلت حبيسة الذكريات..

أما حنان، فمنذ تخرجها من كلية الحقوق وهبت نفسها للدفاع عن قضايا المرأة والمرأة فقط، لا ادرى بأي ذنب قتل الرجل أمامها ولم تعد تراه.

في هذا الوقت لم يكن قد حدث ما أثبت لها جرم الرجال، حتى ظهر هذا الفتى العتي الذي جاء ليجعلها تعطي القضايا الرجال جزءا من حياتها، جاءها ليجعلها وكيلة له بإحدى القضايا، ولكن توكيله قد تم رفضه، ولكنه ظل مصممًا على أمره، حتى نال من قضيتها هي شخصيا، وأصبح منوال حياتها، غير نظرتها عن الرجال المتهمين أمامها قبل النظر في قضاياهم.

أصبحت كفراشة تحلق في سمائه، حتى يوم سقوطها، يوم جاءها خطاب من فاعل خير يحذرها منه وينصحها بمراقبته، وبالفعل راقبته، حتى رأته مع أحد صديقاتها بالجامعة، وما سمعته منهم كاد أن يجعل منها مجرمة بدلا من محامية، كانت صديقتها قد حقدت عليها بسبب ما وصلت إليه من شهرة بين المحامين، هذه الفتاة التي لم تبلغ من العمر ثلاثين، ومن هنا قامت بتأجير هذا الرجل ليلعب عليها دور الحب حتى تستسلم له، ويجعلها لا تستطيع أن ترفع رأسها بين الناس.

حفظها الله منهم بقدراته وجلاله، وبعدها عرفت بأي ذنب قُتل الرجال، ولم تترك فرصة في الحاق

أحدهم إلى حبل المشـــنقة، بعدها بدأ عدد موكليها يقل، إلى أن ظلـت هي الزائرة الوحيـدة للمكتـب، فمن ثم تم إغلاقه، وسكنت مكانها بجانب حياة.

أما أنا حنين، فقد خشــيت الحنين إلى الأشــياء بعدما فقـدت كلا منهن جزءا من قلبهـا مع الحيـاة ومع الموت، خشــيت ألا أســتطيع الحفاظ على جزء من قلبي، وتـأخذه الرياح بـأكمله، بعـد أن حصــلـت على ليســانس الآداب، عـدت لأحيـا مع أمي بهـدوء، إلى أن تركتني، وصــعـدت مع أبي إلى الســماء، وتركت وراءهم هذه الســتائر الوقحة، التي منعتنا من أن نرى السماء.

يـا الله كـم هـو إعجـاز خـلقـك، كـم هـي رحـبـة، كـيف اســتطعنـا أن نعيش كـل هـذا الوقـت دون النظر إليهـا، لمـاذا لم أقم بتمزيق مـا كـان حـاجزًا بيني وبينهـا إلى الآن، فلتذهب نظرات الجيران إلى الجحيم، وليأكلوا ما شاءُ من لحم نيء، ولـكـن لـم أتـرك نـفـســي أنـا وأخـواتـي يـومـا بـعـد هذا اليوم، إلا ونحن نرى السماء.

لنكن نساء تطير كل يوم إلى السماء.

تمت..

عقرب الثواني..

لدي كرسي من الجلد بني اللون، له مسندان ليدي، وظهر أغوص بأعماقه، أتثاقل عليه طول الوقت، أطلق عليه الكرسي المغناطيسي، لما له من قوة لسحبي إليه.

حتى أني لم أعد أتذكر آخر مرة تركته لأسباب دون الطعام والشراب وما شابه..

لكني أتذكر يوم شرائي له، يوم قررت أن أترك عملي وألجأ إلى الكسل المنزلي، لدي وديعة بنكية أصرف من ربحها، تكفيني نصف الشهر تقريبا، والنصف الآخر أقضيه في منزل أبي، وأتحمل رغما عني ثقل دم زوجته، دائمًا تطلق عليَّ سامح «البرطه» وتضحك كي تداري صدق ما قالت

رغم ذلك قبلتُ أن أكون دون عمل، مللت من أن أستيقظ في نفس الوقت مبكرا، ومللت من فكرة أن يتحكم بي أحد رؤسائي بالعمل.

جلست مسترخيا بالكرسي المغناطيسي، وأخذت أقلب في القنوات دون تركيز، حتى استقريت على أحد الأفلام التي تجذبني جذبا كتلك الكرسي - طعام، حب، صلاة -

في أحد الفواصل الإعلانية، نظرت إلى ساعة الحائط وجدتها معطلة، تُهتُ في حركة عقرب الثواني، أغلقت صوت التلفاز، وظللت انظر إليه بتفكير عميق يأتيني من وقت لآخر ليذكرني بأنني مازلت إنسانا.

راقبته بدقة وهو معلق بين عقربين أكبر حجما، كما لو أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، كلما همَّ بالنهوض، عاد أدراجه مره أخرى، لا أدري لم تذكرت حالي معه، رأيتني مثله، كلما هممت للقيام، سقطت وسط بئر الإحباط، على الرغم من أنني أملك أهدافا كثيرة، ولكني لا أستطيع أن أصل إليها.

كان هدفي الأول أيام دراستي أن أصبح مهندسا معماريًا، كنت أعشق أشكال البنايات والتصاميم، وها أنا ذا أعلق شهادتي على يميني ولا أستقر بعمل..

وكان لي هدف آخر، أن تنمو موهبتي بالكتابة ويصبح لي اسمًا يومًا ما وسط هؤلاء المبدعين، ولكنني خُلقتُ هكذا متى انعدم عندي الحافز تموت الأهداف.

لابد أن يكون لدي مقاوم يبث فيَّ روح الاندفاع، بالنسبة لعقرب الثواني، فهو يدرك ما هو مقاومه الذي يساعده على النهوض، بطارية صغيرة من كشك أسفل العمارة يجعله يدور ويحقق أهدافه حتى تنتهي طاقته، ويعود مرة أخري يلفظ أنفاسه الأخيرة، ولكنها لن تكون أبدا الأخيرة، مادام أدرك حافزه.

أما أنا

ترى ما هو حافزي، من ذا الذي بوجوده قد تتغير الطاقات لدي وأنهض بلا سقوط، لابد من سبب أقوى من كسلي ليساعدني أن أخطو نحو أهدافي بلا رجعة لذلك الكرسي المغناطيسي.

خطر ببالي فكرة، وأظنها رابحة، شيء أحبه يساعدني على التعلق بالحياة، شيء يكون دافعي للنهوض، لم أطل التفكير، لاح بعقلي منزل جدي.

كنت قد قضيت به أجمل أيام حياتي من توفيت أمي وأنا في السابعة من عمري، وتزوج أبي بعدها بعامين، كنت أذهب إلى جدي وأقضي معه أغلب أوقاتي هربًا من زوجة أبي، وبعد تسع سنوات تقريبًا، أرسلت أمي إلي جدي، فذهب إليها دون إذن إلى مثواه الأخير، رفض بعدها صاحب البيت أن يعطيني هذه الشقة بحجة أنني لم أكن أعيش بها طوال الوقت، وليس لأبي الحق أيضا في الحصول عليها، فالعين ملك لصاحبها مدى حياته ولا تورث، وأمام عيني، ضاعت أجمل أيام حياتي بها، وتاجر بها صاحب البيت من سنة لأخرى يؤجرها لأصحاب شركات وعيادات ليعوض السنوات التي كان يأخذ بها ملاليم على حد قوله، ذهبتُ إليه يوما وعرضت عليه شراءها، فأعطاني سعرًا فاق حدود وديعتي وحدود ما يملك أبي، وفقدتُ الأمل في أن تُعاد أيامي بها مرةٌ أخرى.

لم لا تكون هي حافزي في أن أجمع المال وأحظى بها؟ لم لا تكون أيامي الماضية هي الدافع في أن يكون لي مستقبل؟ لم لا اتخذ قرارا الآن وسط حماسي هذا وأبدأ بالتنفيذ.

كان قراري الأول هو أن اساعد عقرب الثواني على الوصول لهدفه، وأن أضع له ما ينشط قلبه.

وأذهب بعدها لما ينشط قلبي ويدفعني دفعا نحو الحياة، أن أعود إلى عملي مرة أخرى، وكلما مر بي الإحباط، تركته وذهبت انظر لتلك البيت، ليجدد طاقتي من جديد على الوصول، ويهزم سلبيتي.

تمت..

عادت بعشر أمثالها..

بحجة شـــراء كتاب، طلب أحمد مائة جنيه من أبيه، بـائـع الـمـلابـس الـذي يـفـتـرش الـطـرقـات مـؤجـلا حـلـم امتلاك إحـدى المحلات التي تحميـه من عســـاكر البلـديـة كل ســـاعـة، وجعـل اســـتثماره الأول في ابنـه الوحيد؛ كي ينبتـه نبـاتـا حســـنـا، كـان يعمـل ليلا نهـارا؛ حتى يوفر لـه مصـــاريف الـجـامـعـة، وفـي ضـــي كـل ذرة عـرق، كـان يراه وكيل النيابة، كما تمني عندما ألحقه بكلية الحقوق.

كـان يرى فيـه ســـنـدا بعـد انحنـاء ظهره، ولكنـه زُرِع في أرض لا تنبت خيرًا،

بعدما حصـــل احمد على مبتغاه توجه الى صـــديقه الذي يشـــترى منـه لزوم الســـهرات وفي عينيـه نظرة الانتصـــار فقد ظفر بما اراد.

ركب أحد سيارات الأجرة متوجهًا إلى سهرته، وضعه القدر طائعًا بجانب العم درويش، الذي كان مستندا برأسه على الشباك سارحًا في أفكاره وفي غلاء الأسعار، نظر إلى السبت الذي يستند عليه، كان قد جمع ما استطاع من أقرانه في القرية من خير الحقول والماشية كي يذهب به زيارة لابنته عروس الشهور الماضية، حاملا هَمَّ دخول بيتها في مثل هذا اليوم المبارك وهو لا يملك ثمن علبة حلوى المولد النبوي ليرفع من شأنها أمام أهل زوجها كما نصت عندهم العادات، كل ما يملكه سبته وستون جنيها ورجاء إلى الله.

قلَّ عدد الركاب، وهمَّ أحمد بالنزول، فحمل درويش السَبَتْ ليضعه بجانبه ليخفف بعض الحمل عنه، فوضعه على مقعد أحمد، ولا يعلم ما يخبئه له القدر.

على مدى الطريق امتلأت السيارة إلى حد ما حتى صعد أحد الركاب، وطلب من العم درويش أن يحمل السَبَتْ ليجلس مكانه، فرفعه إليه، وإذا بهذا الراكب

يعطى لـه مـائـة جنيـه ويقول لـه (الفلوس دي وقعـت من السَبَتْ يا حاج)

في ذهـول أخـذهـا، وهـو لا يـعـلـم مـن أيـن جـاءتـه، حقًا سـقطت من السَـبَتْ، أم سـقطت عليه من السـماء بعـد طول رجـاء، لم يعلم أنهـا سـقطـت من جيـب أحمـد وأرسلها الغيب له، حمد الله كثيرا وعلم أنه سمع شكواه.

ذهـب العم درويش ويغمر قلبـه الحمـد لشـراء علبـة حلوى لابنتـه، وجـد نفسـه وسـط قلـة من المبتـاعين في المحل، ووجد ترحيبا كبيرا من البائع، فسأله

- هو احنا مش في موسم؟ مفيش زحمة ليه؟

- الحاجة غالية يا حج، ومفيش حد بيشتري.

اشـترى العم درويش علبـة أرضـت نفسـه وأسـرَّت قلبه، وذهب إلى ابنته مطمئنا.

أخذ بائع الحلوى ثمن العلبة، ووضـع المائة جنيه ضـمن مـبـلـغ احـتـجـزه بـعـيـدًا عـن واردات الـمـحـل، وتـذكـر زوجـتـه وهـي تـقـول لـه أن أولاده بـحـاجـة إلـى مـلابـس ثقيلة. للمدارس بدلا من تلك التي ذابت عليهم.

فأكمل المبلغ بتلك المائة، وعاد إلى بيته، أعطى زوجته ألف جنيه، وقال لها: اذهبي واشتري لهم ما يحتاجون.

في نهار اليوم الثاني كانت زوجته أمام فرشة ملابس أبو أحمد طالب الحقوق الذي سقطت من ابنه المائة إلى العم درويش، ثم عن طريق زوجة بائع الحلوى عادت إليه عشرة أضعاف.

لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، عادت الأجور إلى أصحابها، ولأن الحسنة بعشر أمثالها، عادت المائة ألفا.

دون أن يعلم رحلتها، حتى تصل إليه، وكيف تركت من لا يستحق، حتى تفك كرب المكروبين، وتعود مرة أخرى.

تمت..

كما ربياني صغيرا..

اليوم قررت أن أغير مسار طريقي من بيت الزوجية إلى بيت سيدة لم أكن يوما لولاها، سيدة قررت أن آتي إلى هذه الحياة كي تسهر وتتعب، وتدبر وتهتم لأمر شخص لم يرد لها قدر هذا الاهتمام، لشخص لا يتذكر تقصيره نحوها إلا بعد أن رأى أمامه موقفا يذكره بها.

مررت بإحدى محلات الزهور على غير عادتي نهائيا، فمن يتقاضون مثلي من رواتب لم تطء أقدامهم أمثال هذه المحلات، ولكني تذكرت قولها

«أنا عمري ما حد جابلي ورد»

فقررت اليوم أن أحقق لها أدني أمانيها، وأطل ببابها معي زهور تَسُرُّ قلبها، عساها تتغاضى عن تقصيري لها، فلم أذهب إليها سوى مرتين بالشهر مصطحبًا

أبنائي وزوجتي، لم أفكر يوما أن أمر بها بمفردي بين الحين والآخر، ربما تحتاج أن أقضي لها من أمورها اليومية شيئًا، أو تتحدث معي على انفراد دون أن يسمع بنا أحد، خاصة أنها شديدة الخجل، لم تطلب شيئًا وتطمئننا، حتى وإن كانت على غير استقرار.

ما ذكرني بأمي اليوم هو موقف رأيته أثناء عملي، أعمل كممرض بأحد المستشفيات، في حين كنت أمرُّ على المرضى أضع لهم أرقاما بترتيب أدوارهم في الدخول، رأيت أحد الأبناء في العقد الرابع من عمره، يجلس بجوار والدته، بين الحين والآخر يضع يده حول كتفها ويضمها إليه ويقبل رأسها.

يرتدي من الملابس ما في استطاعة الطبقة الوسطي، ولكنك من النظرة الأولى ترى الخير يغمر وجهه، وكأنه نال كل ما تمنى، حين اقتربت منه سمعته يحكي لها عن عمله، وأنه ربح في هذا الشهر مالم يتوقع من رزق بفضل دعواتها.

ابتسمت وأكملت النظر في وجوه الناس، أصبحت هوايتي المفضلة تخمين ما يدور بحياة البشر من خلال وجوههم.

في مقابل ما رأيت من مشهد وجدت نقيضه، رجلاً وزوجته يحملان والدته على كرسي متحرك، تدفعه الزوجة، ويمشي هو بجانبها واضعا يده في أحد جيوبه، أما عن وضع الأم، فكانت ترتدي ملابس في حالة يرثي لها، حافية القدمين، بالرغم من أن مظهر الابن والزوجة يدل على حالة مادية ميسرة.

كانت تتحدث إليه بصوت منخفض وعين دامعة، تنتظر منه إجابة لا تأتي أبدا، فهو لم ينظر إليها في الأصل.

ثبت كرسيها في زاوية من حجرة الانتظار، وجلس بعيدا بأحد الكراسي الفارغة، في حين ذهبت زوجته إلى دورة المياه، أخرج من سترته تليفونه المحمول، ووضع قدما فوق الأخرى، واخذ يقلب به دون أن يذكر ولو للحظة أن هناك أما مريضة تريد جزءا من حنانها عليه، أشفقت على السيدة المنكسرة، وأتيت لها بزجاجه مياه وربت على كتفها فبكت، وكدت أن أبكي من أجلها.

وقتها تذكرت أمي، وأن حالي معها لا يميل لأحد، هذان الميلين، لا أنا بالابن البار، ولا أنا بالعاق، أقف بين البينين، أنهيت عملي وعزمت الأمر أن أعبر منطقة الوسط هذه، متجها إلى اليمين حيث الجنة التي تسكن تحت أقدامها.

وأن أجعل لها في حياتي وقتا تستحقه، كما جعلت لي كل حياتها أمنًا وأمانًا.

تمت..

زوال..

لم نعد بتلك البراءة كما كنا من قبل، تبدلت وجوهنا بغير الوجوه أصبحت ملامحنا غريبة عن تلك التي نقشت بالذاكرة، أصبحنا أناسًا أغرابًا عن قلوبنا

نلجأ لبعضنا البعض لنهرب من أشباح تقلقنا في مرايانا، نحاول التمسك بأنفسنا القديمة كغريق تعلق بآخر أمل له في النجاة.

في عدة صباحات كنت أستيقظ على رسالة من المدعو مارك مؤسس فيس بوك يرسل لي ما خبأ من ذكريات ظنا منه أنه سيسعدني بها «أشكرك سيدي الفاضل، فأنت لا تدري ما تشعله بقلبي وخاطري بعد كل مره».

أحيانا كان يرسل لي منشورا لأحد اختاره الله من بيننا، فيجدد بي الحزن أكثر ما يسعدني بذكراه.

وكثيرا ما يرسل لي منشورا لأحد بالكاد تناسيت أيامه وكلماته التي كانت تسعدني يوما ما، أصبحت الآن تحرق القلب.

وأحيانا أخرى كان يرسل لي منشورا تبادلته مع أصدقاء عمري ليذكرني بروحي المرحة في محاولة منه لإعادتها كما كانت، ولكنه تأبى أن تعود.

ذات يوم أرسل منشورا مضى عليه أكثر من ست سنوات، ظللت أحدق في صورنا التي وضعناها لتعبر عن شخصيتنا الفيسبوكية أمام كل تعليق، لم تعد صورنا تليق بالكلمات التي كتبت حينها، صور لقلوب قاسية، أو ربما لأصحاب قلوب لم تعد على قيد الحياة، أشخاص متناسية لماضيها برغم نقشه بين طيات وجهوهم، أشخاص عبثت بأحلامهم الأيام.

جعلني هذا المنشور في تحفز لأرى ما تغير بنا، بالفعل ربما استطعت أن أعيده، بحثت عن صورة لي،

على ما أتذكر كنت أضعها خلفية، عندما كتبت هذه الكلمات في التعليق، أخذتها على الهاتف، ووقفت أمام المرأة أبحث عن خمس اختلافات حتى أفوز بالعودة إلى نفسي القديمة.

كان وجهي القديم سعيدًا، ووجهي اليوم يمثل السعادة، لم أقل أني كنت بمعزل عن مشاكل الحياة، ولكنها اليوم تراكمت، وبنت بقلبي بيتًا لها، فأصبحت تطغى على ملامحي حتى وإن كنت أبتسم نفس ابتسامة الصورة القديمة، شحب وجهي قليلا، ومالت بشرتي إلى الاسمرار، ولكن حيرتي كانت حقا في اختلاف نظرة العين، مازالت نفس العين بنية اللون، ذات اتساع، تستطيع من خلاله المرور إلى القلب مباشرة، لا غموض ولا حيرة فيما يجري بين قلبي وعيني، فدائما كانت كتابًا لم توصد، أغلفته للأبد.

كان اختلاف عيني في لمعتها، انطفئت كثيرا بالرغم من أنها مازالت عاشقة، ولكن هرم الحنين بها، حتى قست نظرتها عن ذي قبل، حتي لا تكون مطمعًا لِمَا

رأت على مرور هذه السنوات، في ظل هذا استطاعت أن تحتفظ بطيبة تلتمسها من النظرة الأولى.

وجدت الاختلافات بين نفسي القديمة ونفسي اليوم، ولكني لم أفز بالعودة، بل أصبحت على يقين أني من المستحيل أن أعود إليها، كانت لنا براءة زالت مع الأيام، لم نعد ندري أهي حقًا ضاعت؟ أم نحن من بدلناها بقسوة تتماشى مع ما مضينا به أثناء سير الحياة.

وضعت هاتفي جانبا، ونظرتُ إلى المرآة، مرحبةُ بنفسي الجديدة ذات الخبرات..

متحديه مارك بكل ما يرسل لي من ذكريات..

مودعة براءة في وجهي القديم دوما في زوال..

تمت..

الباب الثالث..

من قلبي سلام لفيروز..

كيفك أنت..

لنا في الرسائل حياة أخرى..

من منا لم تأتيه رسالة يوما تحمله إلى السماوات السبع وأخرى تشق به الأرض شقًا، تسحب روحه من الجسد سحبًا، رسائل تأتي على غير ميعاد، وأخرى جاءت متأخرة سنوات، بعد أن ملَّ الانتظار صاحبه، حينما تطول المسافة بين الكلمة والانتظار تُفقدنا ما ادَّخرنا من مشاعر، فكم من سعادة كانت في انتظار كلمة «اشتقت إليك» وبعد أن جاءت متأخرة تبدلت السعادة بغربة، قد تكون ذبلت المشاعر، وأصبحت أمطار الكلمة ندى، صعب أن ترويها بعد اليوم.

وهناك رسائل تعيدنا نغمتها بصوت من حنين إلى الماضي كما حدث معي- كانت التاسعة من صباح

الثلاثاء المعهود دائمًا معي بالمفاجآت، حين استيقظتُ على رنة هاتفي أنَّ هناك إحداهن جاءتني على غير استئذان، نغمة الرسالة تشير إلى أنها رسالة طال انتظارها، أو لم أعد أنتظرها.

نغمة خصصتها منذ عدة سنوات لشخص كان لي حياة....

عذرا...

لم يكن شخصًا، بل كان لي نبضًا، لايجرؤ القلب على ضخ الدم بشرياني دون وجوده، كان زفيري، وتمنيت أن أكون له الشهيق.

لم أطل عليكم الحكي، فلا يكفيني في وصف قصته معي كلمات الكون.

جلست بسريري شاردة، وعلى يقين بأني أمر بأحد أحلامي التي نسجتها خصيصا لتعينني على شوقي إليه، تناولت هاتفي كي أثبت لقلبي أنه كاذب، وأن رنة الهاتف ما هو إلا خيال أثر الحنين، صدق قلبي وكذبتُ.

كاد اسمه أن يخترق شاشة الهاتف ويحتضنني.

كان هو من أرسل رسالة صوتية، ما إن هممت بفتحها، حتى لحقتها رسالة أخرى جعلتني أطيح بالهاتف بعيدًا، كادت تقتلني النغمة، وكاد القلب أن يتوقف مع كل دقه لها، انتابتني رعشة من وقف عاري الجسد تحت امطار كانون، انهارت بعدها دموعي وانجرفت في مجراها لأعود إلى الماضي.

هو من أراد البعاد بكامل إرادته رغمًا عني وعن قلبي، وعن حب أول لم يشفق عليه، كانت حجته حينها أنه بلا مستقبل، وأن طريقه مبهم الملامح، ألم يكن يعرف ذلك حين اقتحم قلبي وغزاه، وأقام به الأفراح وأحياني بلياليه الملاح، جاء بعد أن أغلق قيده حول مشاعري ليقول لي أنه لا يريد أن يقتل حبي له وسط كل هذا الصخب من المجهول والأفكار التي تشوشه، حتى يرسم حياته كما يريد.

صدمتني يومها كلمة (الأنا) في حديثه في الوقت الذي كنت افكر فيه (لنا) في حياة مشتركة، بأن نخطط معا أيما تكون الظروف التي تنتظرنا، فكنت بحبه قوية بما يكفي لأكون له سندا، قبل أن يكسر ظهري.

غاب عني، وأخذ الأنا، وتركني عامين أُعاني حتى أفصل كلمة (معا) وأستوعب أني أصبحت وحيدة، لا أملك ما كان يقويني من حب.

ماذا آتي به بعد ما استطعت أن انفصل عنه - حتى وإن كان شكليا -؟ أمنع نفسي بالانشغال في النهار من حنيني إليه، ويفاجئني عقلي ليلًا أنه لم يقتنع بعد ويأتيني به في أحلامي يخبرني كل ما يحدث له بعيدا عني، يطمئنني تارة، ويقلقني أخرى.

عدت من حيث أبحرت بالذكريات، ونظرت مرة أخرى إلى الهاتف، لم أكن أدري ما أشعر به تجاه هذه الرسائل، خوف؟ أم أنني لم أعد أريد رؤية كل ما هو آتي منه؟ تجمعت حولي شتى المشاعر وقتها، من شوق الكلمة تقال منه، ومن حنين إلى ماض لم أتركه إلا مجبرة، وأوصدت بابه بصعوبة، وفضول إلى ما جعله يرسل لي بعد كل هذا الوقت.

تمالكت أعصابي وهدأت من روع قلبي، وفتحت الرسالة الأولى، فأتاني منها صوت فيروز:

«تذكر آخر مرة شوفتك سنته..

تذكر وقتا آخر كلمة قولته..

وما عدت شفتك.. وهلا شفتك

كيفك أنت.. ملا أنت»

أكملت غناءها وسط دموع انسابت رغما عني، واعتصرت قلبي الحسرة، ووعيت على نشيجه، مازال يتذكر حبي لفيروز!

توقفت عن الغناء، وقمت بفتح الرسالة الثانية ليأتيني منها صوته، ويحطم كل ما بنيت من أسوار كي لا أحن إليه:

- أول ما سمعتها افتكرتك، مقدرتش أمنع نفسي إني أفكر فيكي.. وحشتيني أوي

وسط كبرياء جاءني، مع وحي أشفق على حالي كتبتُ له ردا على رسائله، ورفضت أن أهبه سعادة سماع الصوت:

«لن تجد مني بعد اليوم سوى أغنية، دعها تؤلمك كُلما سمعتها»

تمت..

لا تهملني.. لا تنساني..

كثير من الأسئلة حُرمت على عقولنا، ما إن تمر إلا ويتبعها الاستغفار، ولله حكمته التي لا يعلمها إلا هو في أن تظل أجوبتها غائبة عن إدراكنا.

ولكنها تلح علي كثيرا في رحلة العشق الإلهي التي بدأتها منذ فترة، حين أخذتني رواية عن الصوفية بين طياتها، ولم أعد منها حتى اليوم، ظللت أبحث معها عن ارتقاء الروح، والوصول إلى لغة للحوار مع الله؛ أطيل فترات التأمل، وأرقص كالدراويش ليالي حتى أسقط، لا أدري من الرقص أم التفكير، أقل في حديثي مع الخلق، وأكثر منه مع الخالق، حاولت بكل الطرق الوصول إليه، ربما يرسل لي وأخاطبه، إما من خلال حلم أو موقف كما حدث معي اليوم في عزاء والدة أحد أصدقائي.

حينها كنتُ أجلس بين جموع وعويل وبكاء، منه ما هو حقيقي ومنه ما هو نفاق، ومنه ما هو ندم على أوقات ضاعت في خلافات، لو أدركوا حقًا أنهم راحلون، لتسامحوا قبل فوات الأوان.

خرج الجثمان محملا على الأكتاف، ومر أمامي، وبعدها تحولت الأصوات إلى طنين، لا أسمع منه كلمة، وذهبت روحي معه في رحلة جديدة وأسئلة عديدة.

وجدت نفسي أتساءل عما تشعر به روح هذا الجثمان الآن، أهي حقا تحضرنا كما يقول البعض بأنها أوقات تتحدث الينا وتشعر بكل شيء نفعله، تحذرنا من أشياء لا نعلمها، أو تخبرنا بموت قريب في أحلامنا؟

أم يكافئها الله ويمنحها حياة أخرى في أماكن عشقتها، ومنعتها الظروف من أن تحيا بها طوال حياتها الأولي.

هل حقا ترهبها ظلمة القبر؟ أم أنها لا تدركها ولا يدركها إلا الجسد تاركًا للروح لقاء خالقها في السماء السبع؟ فكفى بعذاب الدنيا عذابًا، أيعاقبنا الله في الحياتين؟ كيف وهو الرؤوف الرحيم؟ منذ وعى عقلي علي التفكير

وتحيرني فكرة العذاب في الآخرة، ولم العذاب؟ وهو الأحن على العباد من قلوب أمهاتهم، أي أم هذه من تلقي بأبنائها في نار تشوي الوجوه.

يقتلني الظن بأن فكرة العذاب ما هي إلا ترهيب، كي لا نتمادى في خطايانا؛ حتى نعود دوما مستغفرين، فإذا تركنا الله في الدنيا موعودين بجنة الخلد دون حساب، لفعلنا ذنوبًا فاقت ذنوبنا بالمليارات، ونحن الخطائين بطبعنا، فهل فكرة العذاب لنكون توابين؟ أم أن عذابه حقا؟

حقًا، كيف وهو اللطيف بعباده عند الموت، فما من حادث سيارة أو ما شابه إلا ورفق بحال صاحبها، وأخذ بيده إلى غيبوبة تقيه شر آلام الصدمة، حتى يتخطى ما يحدث حوله.

كيف وهو المُنَّجي من المهالك -كما رافقت الكلمة ألسنتنا- وإذا وصلت إلى يقين فكرة العذاب، كيف سيحاسبنا الله؟ بعقائدنا؟ أم بقلوبنا؟ أم بأعمالنا؟

فإن كنت يهوديا أو بوذا، ولدي قلب نقي أتواصل به مع الخالق لا أؤذي لا أزني لا أسرق لا أقتل، غطى الخير في على قليل شري.

فما حسابي عند الله، سأكون مع المؤمنين في جنة الخلد لأعمالي، أم المشركين المعاقبين لكفري بالعقيدة.

دارت بي دوامات الشك، وأنا لا أدري أين ذهب الجثمان وروح الجثمان، انتزعني صوت الآذان من دائرة التيه مرددا

الله أكبر.. الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله

اشهد أن محمدا رسول الله

وكأنه يطمئن قلبي ويرهبه في الوقت ذاته

انفطر قلبي بالبكاء، ومن حولي يظنون بكائي على ما فقد منهم، ولكن قلبي يناجي ربه، علّه يستجيب من آمته الحائرة.

باااا الله ارفق بحالي، فظني فيك ياربي جميلٌ، وجمال ظني يبعد عني كل قسوة قد تأتي منك إلينا، ساعدني يا الله، راسلني ولا تتركني بين أسئلتي ضالة....

لا تهملني... لا تنساني..

تمت..

أنا فزعانة..

حبيبتي..

- أجمل عروس بالكون، كم تمنينا هذه اللحظة منذ سنوات.

- أثني عشر عامًا.

- دائمًا كنتي الأكثر مني دقة

- بل كنتُ الأكثر منك عشقًا، وأيام العاشق دائمًا تمضي سنين بالغياب، ولحظات في اللقاء، فكم من ليالٍ مرت عليّ كألف سنة مما تعدون في غيابك.

- أغلقي ما فات من صحف، ولنبدأ من هذه اللحظة عهدًا جديدًا، تكونين فيه زوجتي بعد ثوانٍ، وأكون لك دنيا عشتي عمرًا تنسجينها في أحلامك.

- هلا تركتني دقائق لأكمل زينتي.

قبل جبيني، وتركني وأنا أنظر إلى المرآة، وجدتني حقًا عروس، أرتدي الأبيض الذي تمنيته، وفي كامل زينتي لزفافي على حب عمر بأكمله.

حاولت أن أبتسم؛ فهذه الأسباب تبهج أي فتاة وهذه فرحتي المنتظرة منذ سنين، ولكنني لم أستطع، قلبي فَزِع، فقد الطمأنينة تدريجيا، فمن يقف أمامي اليوم وينوي مني الزواج بعد دقائق خذلني مرات لم أستطع أن أحسب عددها، وسامحته مرات أكثر مما خذل، حتى تعدى حدود التفكير في ألا يظلمني مرة أخرى.

كان كلما ضاقت به أقل الظروف، لم يجد سواي للتضحية، كنت دائما قربانا يقدمه لتستمر الحياة..

ليته كان يخبرني قبلها كي أدرب قلبي على الغياب، بل كنت أستيقظ لا أجد أثرا له، يختفي بالأيام والشهور ثم يعود، وكانت سعادتي بعودته تنسيني ما عشت من عذاب، فلا أتذكر أن أعاتبه، فيظنني لم أحزن يوم.

حتى اعتاد على هجري مرة وأخري وعدت أخريات، ويأتيني بعد كل مرة وهو على يقين بأنه لن يعود منكس

الرأس، فدائما ما كنت أجعله مرفوع الرأس في حبي له، حتى تعالى على قلبي.

من يزرع بداخلي اليقين أنه لن يهجرني ثانية بعد زواجنا، اليوم حقا أشعر بحبه لي ولكني فقدت الثقة، وفقدت السيطرة على تفكيري بقلق دائم، كيف لي أن أنام بجواره مطمئنة؟ وأنا أخشى من أن أستيقظ صباحًا لا أجده - كما كان يفعل - مثله لا يقيده بيتا أو عائلة أو ما شابه من حياة الاستقرار، فكلما ضاقت عليه هرب، وترك وراءه كل شيء وأي شيء، أعشقه، ولكن قلبي يرتعش خوفا، وأصبح هو فاقد حق طمأنينة قلبي.

أريده أمانًا لا فزعًا، أريده سندًا لا خيبة أمل، أريده صامدًا معي في وجه الحياة وليس بهارب.

- آسيا، هل انتهيتِ؟ آسيا، حان موعد الزفاف.

كان مشهدًا مروعًا له، أنا على يقين بذلك، أن يجد فستان زفافنا ملقى على السرير فارغًا من فتاة ظن أنه تمكن من كل شيء بها، فلا تفكر بهجرانه يومًا.

في لحظة لم أفكر بها؛ كي لا أعود مثل كل مرة أسامحه، خلعت عني فستاني الأبيض وارتديت ملابسي، وذهبت بلا رجعة إليه، حاولت أن أجرب ولو لمرة إحساس الهروب الذي كان يمارسه دائمًا ببراعة، تعلمت منه أن أركض دون أن أنظر لما تركت خلفي.

حسمت قصتي معه، فلا أستطيع أن أحيا معه وقد ماتت ثقتي به، أفضل أن يظل حبه كامنًا على أن أكرهه للأبد.

أنا فزعانة تقوم عن جد تنساني..

ويمكن حبك جد بس انا تعبانة..

تمت..

الأوضة المنسية..

(معبد الروح)

كم تمنيت أن يهديني الزمان ليلة أخرى أحياها بها أفتح نافذتي على مصراعيها

فكنتُ أخشى ذلك حينها، وقضيت سنوات أنظر من خلفها.

سأشرب الكثير والكثير من القهوة، وأجمع كل ليالِ الأحد في هذه الليلة وأعيش سعادتهم، وأغلي الكثير من أوراق الشاي، وأجعل دخانها يسكن أركان تلك الغرفة الخشبية، لم أنسَ هذه الرائحة حتى اليوم.

أحتضن بنظري صديقتي الشجرة حتى يرتاح قلبي من الشوق، صديقتي التي سجلت على أوراقها أسرارا لم

تعلنها يومًا لأحد، بل خبأتها في الخريف بين جذوعها؛ حتى لا تتطاير مع الأوراق، اشتقت لها كثيرا.

سأدعوه يأتي تحت شباكي وأُسمعه، ما خزنت له بقلبي من أغاني فيروز، وأجعل صوتها يملأُ الحي من حولي، فكنت أخشى قديمًا أن ينزعج أحداهم من غرامي بها.

سأنهي الليلة بين يديه، وأتركه يحملني حيث تركته في آخر موعد لنا.

كان هذا آخر ما كتبته في دفترها حاوي الأسرار، لم أجرؤ يوم على تصفحه، ليس خوفا؛ فهي كانت أوفى صديقاتي، ولكنها علمتني أن لكل منا خصوصية يتعرى إذا رآها أحد، وما نكتبه على أوراق دفاترنا الخاصة، لا نستطيع أن نتصارح به مع أقرب الناس إلينا، في حياة كل منا سر لا يُحَدث به سوى النفس، كانت غرفتها أو كما كانت تطلق عليها (الأوضة المنسية) سرها الكبير.

غرفة مكتبها حين كانت تعمل بإحدى الشركات قبل زواجها من أبي، أربع سنوات ظلت تحي على ذكراهم العمر بأكمله، على أمل أن تعود إليها يومًا ما،

كانت روحها معلقة بهذا المكان بكل ما فيه، البنايات والمحلات وأهالي الحي جمعاء.

أتذكر حين كنا نشتاق إلى نزهة كانت تأخذني إلى المقهى المقابل للبناية التي كانت تعمل بها، وتحكي لي عن حبها لهذا المكان، أحببته من صدق حبها له.

صباح أمس تزينَت وعبأت حقيبتها بقطع شوكولاتة تكفيها طوال الرحلة.

وقبلتني قبلة لن أنساها ما حييت، وكأنها كانت تعلم أنها القبلة الأخيرة، وتركتني يغلبني النعاس، وذهبت.

في موقف الباصات، صعدت إلى أحدهم وجلست وسبقتها الروح إلى هناك..

كانت كلما لامتها الدنيا أعطتها ظهرها، وولت وجهه نحو محرابها..

ما أجمل أن يكون لك معبد يمر به الناس، ولا يعرف قدسيته غيرك، كان ذاك الشارع محرابها ومعبدها وعزائها ومقصدها كلما ضاق صدرها، كلما أغرقها الحنين، جاءته لتأخذ منه قبلة الحياة.

كانت كل مرة تذهب إليه، تجد من غير ملامحه بهدم القديم وبناء الحديث، لا يعلم أن ما هم لم يكن سوى قلب يمتلئ ذكرى وليست حجارة، ولكنها كانت تغمض عينيها عن الحديث، وتحاول أن تتنفس من عبق الطرقات والأشجار، الهواء مازال نفس الهواء، الحمد لله أنَّ قدرتهم لم تصل إلى تغير الهواء.

ذات مرة قالت لي عند موتي «لا تدعيهم يدفنون جسدي إلا بهذا المكان، هناك أماكن تذهب إليها الروح تاركة الجسد في مكان أرغمته الحياة على العيش به، فلا تفرقي بين جسدي وروحي يا ابنتي في مثواي الأخير».

جلست على باب الشارع تتأمل المارة وتبتسم، شعرت ببروده تملؤ جسدها، بدأت الأشياء تتوارى أمام عينيها، وصفت لي هذا الإحساس كثيرا عندما كانت تشعر بهبوط بضغط الدم، سقطت مغشيا عليها، وسمعت أصوات من حولها وهم يحملونها ويحاولون إفاقتها، وفجأة اختفت هذه الأصوات، ووضحت الرؤية، ولكن دون أن ترى أحدا.

صـــمت تام من حولها، رأت نفســـها محلقة حول الشـــارع تلمس جـدران العمـارات القـديم منهـا والحـديـث، قطفـت إحدى ورقات الشجر وقبلتها شوقا، شعرت بصفاء روحها.

لم تعلم أن روحها جاءت بها اليوم إلى هنا لتصـــعد إلى سماء معبدها، وتترك جسدها في المحراب.

كـان هـذا آخر مـا كتبتهـا أنـا بـدفترهـا المقـدس، وأغلقتـه للمرة الأخيرة؛ لأدفنه بما يحوي من أسرار بجوار قبرها.

وأذكر هما معا كلما ذهبت إلى حي الأوضة المنسية..

تمت...

سأل الحلو..

صباح الاثنين في تمام الساعة التاسعة

للمرة الثلاثين في قرابة الشهر والنصف يمر أمامي، ويبتسم ويهز رأســـه إلى محيي على أمـل أن ينـال مراده، بعـد أن تجرأ مرتين وسأل

«أين ذهبت جارتنا الحسناء فجأة؟»

أنا شخصيا نفسي أسأل أين ذهبت!

مـنـذ أن تـوفـت زوجـتـي، وأنـا لا أنـيـس لـي ولا جـلـيـس ســـوى هذا الدفتر، أخط به مذكراتي دون أن أعلم الســـبب، وحـديقـة أرعى أزهـارهـا عوضًـــا عن أبنـاء لم يمنحني الله إيــاهـم.

ومنذ عام تقريبا، كنت قد وجدت لي أنيسًا آخر في قصة هذا الشاب، ساكن البناية المقابلة، كان دائما ينتظر أن تشرق شمس جارتنا؛ ليفتح نوافذه ويحتسي قهوته على مهل ويختلس النظرات.

حقا كانت تشرق كل صباح بوجه لا تفارقه الابتسامة، تلقي عليَّ التحية، فتتعلق بها زهور حديقتي فما بال هذا الشاب؟

قليل ما دار بيني وبينها حوار، فكانت في أوقات ما تأتي بأحد أصيصات الزرع محملة بالورد أحيانا، وبالفل والياسمين والعطر أحيانا أخرى، فعلمت أنها تهتم بالنباتات، فأهديتها إحدى مزروعاتي لترعاها، وتكون مني ذكرى.

وبعدها علمت أيضا أنها تعمل بإحدى الشركات بالطابق الثالث بنايتنا، كنتُ دوما أجد في قصتها مع جارنا عوضًا لي عن الوحدة، كنت أجلس في حديقتي بكرسي هذا الذي لم يجر الزمن على تغيره، وأشاهد نظرات الحب التي تعبر الطريق إليها.

ولكني كنت كثيرا ما ألوم عليه خوفه وعدم جرأته في حبه، فلم يحمل نفسه طوال هذه المدة عناء محاولة التقرب منها أو الحديث إليها فقط، أكتفي بمراقبتها عن بعد، ربما لم يجد منها ما يشجعه للحوار، ولكني إذا تبادلت الأماكن بيني وبينه لاختلقت ملايين الأسباب لأتحدث إليها حتى لا يصدمني فراقها المفاجئ ويظل قلبي يلومني طول عمري على فرصة لم تكن.

صباح الثلاثاء في تمام التاسعة، مر كالعادة، ولكني هذه المرة كنت أحمل إليه أخبارا..

ولكنه قد تقطع عنده الأمل في اللقاء مرة أخرى.

فقد علمت من أحد السكان أن شقة الشركة بالطابق الثالث معروضه للبيع، عندما أخبرته، تظاهر بالابتسام أثناء تحيته، ولكن عينيه أخبرتني الكثير عن قلب سينفجر.

كان على أمل أن يراها تفتح نافذتها مرة أخرى، فتمر الشمس من خلاله، ولكنه اليوم أدرك أنه أضاع شمسه، ويعلم الله إلى متى سيظل في ظلال الغيم..

توجهت إلى حديقتي أسقي ما تبقى لي من ونيس، وأردد أغنية ذكرتني بحاله.

سأل الحلو، هالبيت الحلو

على اللي كانوا يجو يسألوا

قال الصدا ما في حدا

واللي كانوا يجو بدلو بدلو..

سال القمر في ليله قمر عن حلوه وليالي سهر..

قال المساء ها الكان انتسي والحلوة ما تركت خبر يا قمر..

تمت...

الباب الرابع..

السائرون في طريق العشق

.. لم يزدني الورد إلا عطشا..

أنا محمود عهدي، البالغ من العمر ستة وثلاثون عاما، حصلتُ عليهم من الحياة وأنا أتثاقل بها الخطي، أتأمل تفاصيل وزوايا الكون على مهل، أتدبر أموري وقرارتي كي لا أندم عليها؛ خطأ كانت أم صحيحة، فقد أعطيتها ما يكفي من الوقت لتولد، أتدبر أمور عملي وأتعمق بمجرياتها لعلي أحصل في يوم ما على طموحي، وأيضا في حياتي الزوجية اخترت شريكتي بعد حين من البحث، وخطفتها من بين الجموع لأكثر شيء يغريني بالنساء، دفء عينيها، كانت لعينيها لغة تجيد الحوار، وأنا أعشق حديث العيون، حتى ثُلِّجت عيناها مع الأيام، وفقدت لغتها.

بحثت كثيرا بأعماقها عن الكلمات، وكنتُ بعد كل مره أعود وأنا أجر ورائي أذيال الخيبة، حتى

أصبحت عيوننا بلا حوار وأصبحنا بلا دفءٍ ولا بردٍ، لا نمطر سويًا ولا نثمر.

حتى وجدت ضالتي في يوم، حينما كنت جالسا ذات نهار في شرفتي أدخن وأعبث بدخاني وأتامل أشكاله، أتامل سماء الخالق ورحابها، ذابت روحي بين أركانها، حتى بدت لي السحب حروفًا وكلماتٍ، اعتدل في جلستي وحدقتُ أكثر، فوجدتني مازالت في وعيً، وبالفعل تحدثني السحب، تعبر أمامي واحدة تلو الأخرى، تريدني أن أفك شفرة كلماتها، أو أفهم مقصدها من الشكل، ركزت على أحدهم، وجدتها تتشكل بحروف أسمى، حتى اكتملت وكأنها تناديني.

سرتً معها وأنا بمكاني، وأخذت أقطف من كل سحابة كلمة وبجمعهم أدركت أن السحب تدلني على صالح الخطى، بعدها أدمنت لغة السحب، عشقتُ الشتاء أكثر بكثافة حروفه وتلبد كلماته، أصبحت آتي على عجل على غير العادة لأزيد كل يوم شغفي بالتأمل، وفك شفرات السحب.

أجلس وأفرغ ما تبقى في بالي وأستمع لما أحب من الموسيقى، وأرحل في رحلتي السخية، أصبح لمراسيل خليفة صدى ترددده الأجواء حولي، ولكلمات الحلاج نور يسري بين السحاب، ويدور في حركة دائرية، وأدور معه حتى أفقد الحس بهذا الكون، وألامس الفضاء، عشقتُ الكليات أكثر في رحلتي وتعمقتُ بها، كانت تقول:

«يا نسيم الريح قولي للرشا.. لم يزدني الورد إلا عطشا»

حقّا كانت جلستي هي وردي اليومي، أخاطب السحب أم أخاطب الله، ولِمَ لا تكن تلك الكلمات رسائله لي؟ تتعدد طرق مخاطبة الخالق لخلقه، وربما هذه أحدى الطرق التي اختارها الله ليدلني ويرشدني، وأوجدني ضالتي في سُحبه لينقذني من هذا العالم الخبيث، فكثير من هذه الرسائل أبعدتني عن خطي لم تكن خطايا، أتذكر حين كنت على وشك أن أتزوج من صديقة لي بالعمل سرا، جاءتني سحابة كثيفة وتفككت أمامي إلى نصفين، سقطت من بينهم سحب صغار، تشتتوا جميعا، كل منهم في طريق، بتأملها أدركت أن السحابة الكثيفة هي بيتي، والنصفين أنا وزوجتي الصامتة، وصغار السحاب صغارنا الذين سوف يكتب عليهم

الشـــتـات بهـذا الزواج، ويومهـا أقلعـت عن فكرة الزواج، وارتضـــيـت بحـديثي مع الســـحـب بـديلا لي عن حـديـث العيون، وســـرت على خطى كلمـات الســـحـب، وهِمْـتُ بوردي اليومي بالتقرب إلى الله.

الكـل منـا رزقـه، فـالحـب رزق، والصـــحبـة رزق، وحـب النـاس رزق، وفقـه القول رزق، ورســـائـل الله رزق، ابحـث عن طريق تصـــلك به الرســـائل، لعلها تكون مرشـــدك في الحياة.

تمت..

.. قتلوك يا شمسي..

(١)

لم تجمعني به حياة، لم أشـــاركه منزل وأبناء، لم نتحدث إلا مرات قلائل

لم نغزل نســـيج قصـــة ســـويًا يتحاكى بها الزمان وينظم من خلالها الأشعار

ولكن أنفاســـه كانت تأتيني دوما في مســـتنشـــقي من الهواء.

كـانـت تجمعنـا أرض وســـمـاء، وهـذا يكفي لمثلي من المحبين، مجرد أنفاسه في هذه الدنيا كانت تحيني.

لم أحيا بعدك يا شـــمس يومًا، ما أنا إلا صـــنم ينتظر أن تحطم أركـانـه ليـذهـب إليـك أخشـــى أن أقتـل نفســـي،

فيرفض حراس الجنة أن يرسلوني إليك عقابا على كفري.

آه، قتلوك يا شمسي.

أكتم صراخي بقلبي الذي أحترق عليك وكدت أن ألمس رماده.

«تموت ولا أموت عليك حزنا، وحق هواك خنتك في هواك»

تقف في حلقي الكلمات تمنعني من التنفس، أريد أن أبوح، أن أحكي عنك وأقص حكايتي معك على أحد يسمعني دون أن يلومني، ولكني لا أجرؤ على ذلك، تقتلني الوحدة بعدك يا روحي، أرسل إلي، حدثني، لعل أيامي تمر.

- أريد مقابلة مولانا

- ولكنه معتكف منذ مقتل شمس، لا يتحدث مع أحد.

- قولي له أرسلني شمس.

- لقد سمح لك بالدخول، تفضلي.

- سلام الله عليك يا توأم روحه

- ماذا تعرفين عن شمس!؟

- أرسلني إليك

- أرسلك!، من أنتِ وكيف أرسلك ؟

- أنا أفنان، زوجة أحد كبار التجار، جاءني شمس ليلة أمس بالمنام، وقال لي ستنتهي حيرتي بين يديك، وأمرني بالذهاب إليك.

- وفيها حيرتك يا امرأة ؟ وما علاقتك بشمس ؟

- سأقص عليك حكايتي..

التقيت بشمس للمرة الأولى بالسوق، كنت أسير بين حارس وخادمة، وجدت زحاما من الناس بينهم فتاة باكية، يحاول أحد الرجال صفعها، وإذ فجأة ظهر شمس، وأخذها من بينهم وخبأها خلف ظهره ودافع عنها باستماته، أعجبت بشجاعته حين اصطحبها من بين

الجموع، وذهب بها بعيدا، وكأنه كان سندا لها منذ ولدت استوقفته وسألته: أتعرفها ؟

قال: لا

قلت: إذا أحييك على شجاعتك

نظر لي نظرة لن أنساها ما حييت، شعرت بعدها أني أرى الكون بسواد عينيه، وقال لي:

«ما نحن إلا صور لروح الله، والصور تتلاقى على مدى العمر، وتعرف بعضها البعض دون أن تعرفه» وتركني وذهب

سألت عنه البائعين فأجابوني: شمس، أحد دراويش هذا الزمان

أكملت طريقي دون أن أبتاع ما قد خرجت من أجله، وذهبت إلى البيت وأنا أعيد كلامه بيني وبين عقلي، وأشعر بتغير قد طرق على قلبي لا أعلمه

أصبحت بعدها أخرج للسوق أبحث عنه، أريد التحدث معه، وبعد أسابيع وجدته مرة أخرى، وللعجب تذكرني حين أقبلت عليه مبتسمة، سبقني

بالسؤال عن حالي، ولكن هذه المرة كان ينظر بالأرض، وكأنه قد أدى رسالته من المرة الأولى حين نظر إليَّ.

قلت له: بحثت عنك كثيرا

رد: وها قد أرسلني الله في طريقك

قلت: أحقا الدراويش أقرب منا إلى الله

فأجابني: اسعي إليه خطوة ويهرول إليك ميلا، لا فرق بين درويش وسيدة من الأغنياء في سعيهم إلى الله

- وكيف عرفت أني من الأغنياء؟

- حدثني مظهرك سيدتي، اخلعي عنك مظاهر الدنيا، واسعي في طريق الحب وأنت من البسطاء، فإنك تملكين قلبًا نقيًا وشفافية تسهل عليكِ سعيك، واحذري الشتات.

لو كنت أعلم أنها المرة الأخيرة التي ألقاك بها، ما تركتك يا شمسي.

(٢)

ذهبت إلى البيت وكأنه أملي على أمر لا أستطيع أن أخالفه، خلعت عني ما بدى من مظاهر الأغنياء، ثم اغتسلت وتوضأت وارتديت ملابس فضفاضة، بتُ أصلي طول الليل، وأدعو الله أن يدل روحي على الطريق إليه.

على مدى الأيام تبدل حالي، حتى اتهمني زوجي بالزهد والدروشة، وصار يمني، فجمالي الذي جعله صابرا على عقمي، بدأ يتوارى خلف ملابسي الفضفاضة وحجابي طول الوقت، حتى ساءت معاملته لي، فكان دائما يريدني ولا أريد.

حتى فاجأني يوما بزواجه من أخرى، ولكنه تركني على ذمته؛ لأنني ابنة عمه، وخشي أن يلومه الناس على تركي وحيدة.

اتخذت من غرفتي معبدا أتقرب فيه إلى الله بالذكر، ومن قلبي مسكنا لشمس يضيء لي الطريق من وقتٍ لآخر، كنت أحدثه في سري وأراقبه من بعيد لأعرف أخباره، لا أريد منه سوى هذا الضياء الذي بعثني إياه، فما كان حبي له إلا طريقا سلكته للوصول إلى الله.

عندما علمت بزواجه ضحكت، ضحكت كثيرا، حتى انهمرت الدموع من عيني، سالت دون إرادتي خوفا من أن تأخذ من قلبه الروح الذي أحدثها، وتتركني في ظلام بلا سراج يضيء روحي، أنا لا أريده زوجًا، لا أريد منه شيئا سوى أن أحبه، أحبه وأحب الطريق الذي كان هو دليلي فيه، أحبه حتى أنَّ روحي آلفت حديث روحه بعد أن كانت خرساء، سار هو معلمها ومحدثها.

حتى علمت بقتله، وتشتت أركاني، صرت أبات في نار ولا أستيقظ، ظنوني جننت من حديثي إليه طوال الوقت، وصراخي الذي يجهل سببه كل من حولي.

حتى أتاني ليلة أمس وقال لي أن أذهب إليك لتدلني على الطريق إليه، وها قد جئتك اليوم لتدلني.

- وهل ستدركين ؟

- ضع قدمي على أول الطريق، وسيأخذ بيدي إذا أرادني.

- أطلقي سراح قلبك، فهو يرعى في غير أرضه، واتركي العنان لروحك؛ لتكون دليلك على الطريق.

ذهبت بعد هذا اللقاء، وأنا أدرك ما أريده، بعد طول ظلام، دخلت على زوجي بإصرار لم يعهده من قبل، وطلبت الطلاق، وأن يتركني أذهب في طريقي، ولا يخشى عليَّ من الوحدة، وإذا سألَه الناس عني، يقول هذا ما طلبت وأصرت عليه.

أطلقت سراح قلبي، وذهبت الي بيت أبي المهجور له سنين، ولأول مرة أشعر بحرية بعد عمر طويل اشتقت إليها، أريد أن أحزن بلا خوف، أريد أن أصرخ بلا قيد، صعدت على سطح البيت في ساعات الميلاد الأولي للنهار، وصرخت بحرقة....

اااااااااااااه، قتلوك يا شمسي..

(٣)

أنا أفنان أمة الله، أنا من أطلقت سراح قلبها، وتركت العنان لروحها كما أمر، ومن يومها وأنا وحيدة يؤنسني الكون، يؤنسني طيفه، يكمل معي الطريق إلى المعرفة، يرشدني إلى الحقيقة التي لا بعدها شيء.

ذات ليلة كنت أجلس فوق سطح البيت أتأمل سماء الخالق، وإذا بصوت ناي يأتيني من مكان قريب، أنينه شق قلبي وفتح لي طريقا للذهاب حيث رقصة الدراويش "سما".

وقفت، وأخذت أدور حول نفسي في دائرة ببطء، وكأني طفلة مازالت تتعلم أولى خطوات المشي، أخشى أن تدور رأسي وأسقط مغشية عليَّ.

مع اندماجه بالعزف، وجدت قدماي تدور وحدها دون إرادتي، أسرعت واحدة تلو الأخرى، حتى شرعت بدوران برأسي، كدت أسقط حينها، لم أحتمل المقاومة فجلست سندت رأسي على الحائط وأغمضت عيني، وقتها جاءتني فكرة، لِمَ لا أخلد جزءا من ذكري شمس؟ لِمَ لا أشاركه رقصته مع الرومي؟ يرقصون برجالهم وأرقص بنسائي؟ لابد أنَّ هناك من النساء من يبحثون عن هذه الحالة من الصعود، من يرتقون مع الدوران بأرواحهم من الواقع المتدني ليسرقوا دقائق من الخيال الرحب، من طهر الأرواح، من التقرب إلى الله.

راودتني الفكرة لشهور، أخذ أدرب نفسي على الدوران كل ليلة حتى أكسر تلك الدوخة التي تحل برأسي، كلما شعرت بها جلست أستريح ثم أكمل، أزيد الوقت كل مرة تدريجيا حتى أصبحت أكمل الدوران لنصف ساعة متواصلة.

بعدها ذهبت أبحث عمن يساعدني في إكمال فكرتي ويعلمني مبادئ رقصة سما التي قيل فيها أشعارٌ، سمعت قبل ذلك قولًا عنها من مولانا.

«إن هناك طرقا كثيرة توصل إلى الله، أما أنا فقد اخترت طرق الرقص والموسيقى التي تمكن مريديها من التواصل مع الله بالحركة وليس بالسكون».

وجدتُ ضالتي، بعد كثير في أحد تلاميذ سلطان ولد بن جلال الدين، كان بالنسبة لي كالنهر انهل منه لأتعلم.

حدثني عنها قائلاً: إنها أول رقصة قام بها شمس بعد عودة لقائه بخليله، حيث استمروا في خلوة مدتها أربعون ليلة، يعطيه دروسًا فيها ويتدارسون علم النقطة التي يدور بها، ثم تتوازي مع دوران الأفلاك مع ذكر اسم الله حتى تتسع الدائرة ويتسارع الدوران، وهكذا يكون قد تم الالتحام الروحاني والاتصال بالخالق.

- إذا هي أكبر مما كنت أتخيل، هي علم وطريق مدبر الخطي، وليست مجرد رقصة

- ما رقصتنا إلا رحلة لنا فيها خطوات نسير عليها، حتى نصل لذلك الالتحام، بداية من التوحيد وفصل الذهن عن القلب استعدادا للعلو، ثم ملء الروح بالطاقة الكونية والقلب بنور الله، ثم نستمد الخير منه بيمينا، ونرسله إلى الأرض بيسارنا، ثم ندعو الله طالبين

المغفرة متحررين من ذنوبنا تائبين عنها، بعدها نطهر الروح بملء النفس بجمال الكون، نوعد الله تائبين في نشر الحب والخير، ثم ننهي رحلتنا بنقلها للكون على شكل دائرة طاقة غير مرئية ونعود من السماء إلى الأرض مرة أخرى.

أكملت عامي الثاني، وأنا سيدة نساء الدراويش، فتحت بيتي حلقة للذكر ورقص نساء دراويش، قابلت ما قابلت من اضطهاد، ولكن الله كان يرسل لي إشارات الرضي لأكون دليلهم في رحلة سما.

كانت أول الاشارات فتاة جاءتني لتتعلم، كانت ملامحها ليست بالغريبة لي، بالكاد تذكرتها.

كانت نفس الفتاة التي كان يدافع عنها شمس يوم التقينا، وجدت بقلبها ما زرع شمس قد أنبت نور، أصبحت اليوم أنجب تلميذاتي..

سأكمل طريقي، ولتحيا بكل خطوة نخطوها يا شمسي.

تمت..

.. بركة السيدة العجوز ..

في الثامنة صباحا كالعادة، خرجت من منزلنا قاصدة عملي، أسير بنفس الطريق، أضغط بيدي على سبحتي ذات الأطراف الحريرية منذ ستة أشهر، وقتها عاهدتني أن تبعث بي الطمأنينة إذا ضلت طريقها إلى يوما ما، ودوما كانت صادقة الوعد، ما إن ضممتها بقوة، إلا وبثت بعروقي السكون، حتى يصل إلى قلبي.

ليلة أمس لم يلتق جفناي، قضيتها حتى نهاري أحدق في سقف غرفتي، واجتمعت حولي كثير من الضغوط، منعتني أن أرى الأمان، تشتت بين الطرق، فما من طريق سرت به إلا وعدت من نصفه دون رغبة في أن أكمله، حتى حلمي بدي غير واضح الملامح، كل ما توصلت إليه في الفترة الماضية أني لا أريد الحب، لا أريد أن أقيد قلبي.

أريد الحرية، حرية الروح لا الجسد، أريد السلام، سلامًا لقلبي، سلامًا لروحي، لعقلي، سلامًا يحملني ويضعني على خشبة مسرح وسط الصحراء وبين جموع الناس في آن واحد، أرتدي ملابس بيضاء ناعمة وأرفع شعري لأعلى وأعقده بحلي من اللولي، وحين تبدأ الموسيقى أحلق وأحلق وكأني خلقت للطيران، لم تلمس قدماي الأرض يوما، وأنهي رقصتي وسط تصفيق وهتاف، أشعر بعدها بنجاح كبير يسعد قلبي، وقتها فقط أجد ما كنت أبحث عنه في الحب «النشوة».

وسط هذه الافكار، بت ليلتي، وأصبحت اليوم حزينة على ما أبحث عنه، وطال غيابه، أكملت طريقي، حتى وصلت إلى المكان الذي أخذ منه سيارة العمل، صعدت وجلست في مقعدي المعهود بجوار النافذة، أخذت سبحتي، وبعد أن أتممت عليها وردي اليومي، ضممتها إلى يدي بقوة، ونظرت إلى السماء، ظللت أدعو الله راجيه إياه أن يكون قريبا مني ويستجيب، أن يخفف حمل قلبي ويهدئ من روع أفكاري ولا يحملني ما لا طاقة لي به.

توقفت السيارة في إحدى إشارات المرور، ووسط شرودي، لمحت سيدة عجوز لا يتجاوز عمرها الستين عام، ترتدي عباءة مزركشة الألوان، وفوقها شال يميل لونه إلى الاخضر يغطي كتفها وخصرها، وحول عنقها ما لا يقل عن عشر سبح، لفت نظري أن من بينهم واحدة مطابقة لسبحتي، فوق تلك السبح سلسلة كبيرة تحمل اسم الله، كانت السيدة تحمل كمية من عبوات المناديل الورقية، وتسير بها بين السيارات تقتات بها قوت يومها.

فجاءة وجدتها توقفت بجانب النافذة التي أجلس بجوارها، وأخرجت من حقيبتها عبوتين صغيرتين من المناديل، ووضعتهم بين يدي وهي تبتسم وتقول «دي بركة مبعوته ليكي» فتحت حقيبتي لأعطيها ثمنهم، ولكنها لم تنتظرني، ناديت عليها كثيرا، ولكنها اكتفت بأن تلتفت إلي وتبتسم، واختفت بعدها وسط السيارات، تركتني في ذهول من كلماتها، شعرت حينها أن الله يسمعني ويطمئنني.

بكيت كثيرا حتى أزيح هذا الحزن الذي خيم عليَّ منذ ليلة أمس، وذهبت إلى عملي مسرعة لأحكي لصديقتي المقربة ما حدث معي، لعلي أجد له إجابة لديها.

وما كان ردها إلا أن أتخلص من هذه المناديل سريعًا، فلابد أن بها مخدرا أو شيئا ما مما يستخدمونه أصحاب حيل الخطف.

قلت لها: مازلت أقف على قدمي ولم يحدث لي شيء، عقلك به كثير من الشكوك.

فردت أنها لا تسلم شر هؤلاء البشر وألاعيبهم الخفية.

ضحكت وقلت لها: ولكني مازالت أرى أنها بركة السيدة العجوز، حتى وإن كان أغلب البشر لم نسلم من شرهم، سأظل أؤمن بالقليل الذي يحمل الخير، سأظل أبحث عنهم بين الوجوه، التمسهم من المواقف، أجعلهم السائدين، حتى يمحوا ما تبقي من شر، على الأقل لدي، وتسلم وتظل لي بركة السيدة العجوز.

حدث بالفعل :) تمت..

للتواصل مع الكاتب

https://www.fb.com/radwa.mahmoud.98478

Odabaa
OD
2000
للنشر و التوزيع